الإعلام المصري و... يسقط يسقط

يسقط يسقط حسني مبارك.. يسقط يسقط حكم العسكر.. يسقط يسقط حكم المرشد.. يسقط يسقط الإخوان.. يسقط يسقط الخرفان.. ثم إعادة جديدة للمشهد ويسقط يسقط حكم العسكر.. يسقط يسقط حكم السيسي، يليه خفوت للصوت و"فيد إن أسود" وتاريخ لا ينسى من السقوط دون دعوة واحدة للنهوض. لن أكون مع أوضد ولن أفسر سقوطا لصالح سقوط آخر. بل سنحاول سويا قراءة الخطاب الإعلامي فى تلك الفترة من خلال المصطلح والإجراء.

بالطبع يمكن خداع الشعوب لفترة زمنية. تنفذ قوى الخديعة فى تلك الفترة المخططات التي رسمتها لخدمة مصالحها الخاصة. لكن هل تساءلت يوما لماذا ننجرف خلف تلك المخادعات؟ الإجابة أعتقد أنها بسيطة: فإن لم يكن هناك مقدمات طبيعية تتبعها قوى الخديعة لما استطاعت تلك القوى تنفيذ مخططها. فكانت مقدمات "يسقط يسقط حسني مبارك" نتاج إنفصال تام ما بين المرسل والمستقبل عبر وسائل إعلامية لا ثقة فيها "الحكومي أقصد" فى ذلك التاريخ الذي دام ثلاثين سنة. فكان المطروح إصطلاحيا مناف تماما للممارس فعليا وقد لمس المواطنون ذلك الكذب، لكن القمع والتعامل الأمني مع المواطنين، كان كفيلا بإلجام أصوات العوام الذين هم أساس أي تغيير وتقدم. لم ينج من ذلك الخوف إلا من رحم ربي من الثوار الذين خاضوا معارك شرسة ضد مبارك ونظامه وهم معروفون بالإسم مهما حاول البعض تزييف الحقائق. لكن التعامل

الأمنى لم يمنع من إشتعال النفوس غضبا ورغبة فى التغيير دون إعلان وبخوف من البوح، فكانت النيات متوافرة ورغبة الخلاص موجودة ومع إنطلاقة أول شرارة للثورة أو المؤامرة أو الانتفاضة كما ترغب فى تسميتها. خرج المكبوتون المبيتون النيات على الحاكم والأمن رغبة فى الخلاص وتمنيا للإنتقام. فالثورة أظهرت نتاج الإنفصال الكامل مابين الإصطلاح والإجراء على مدار ثلاثة عقود. وسقطت الدولة الهشة ونظامها القمعي الظالم. لم تخترع قوى المؤامرة إن كنا نؤمن بنظرية المؤامرة، النيات والرغبات عند الناس. بل فقط أحسنت استغلالها وإشعالها ضد نظام أصابه العجز والشيخوخة بفعل تراكب الكذب والسعار على السلطة والمال.

بالطبع كان المغلوبون على عقولهم ومع بدايات الثورة ينتظرون أن ينحاز التليفزيون الحكومي إلى الثوار. دون دراية لمعنى الحكومي، الذي هو لسان حال مبارك وأسرته، لكنهم فوجؤوا بالعكس تماما. حتما لم تكن مفاجأة لمن يعرف المعاني والمصطلحات على حقيقتها ويدرسها على تلك العلة. فموضوع الإنحياز كان متوقعا وطبيعيا ولم يكن وليد اللحظة الثورية، فقد نبهنا منذ سنوات وعبر سلسلة متواصلة من الكتابات عن خطورة الإنفصال مابين الإصطلاح والإجراء. رغبة فى تدارك الكارثة النائمة فى أحضان الصمت. ففى العام 2007 كتبت عن لعبة الخسارة والتخسير بالتليفزيون الحكومي المصري. عسانا نجد من ينتبه إلى ضرورة وقف اللعبة التى رصدتها كما فى ذلك النموذج القديم

لعبة الخسارة والتخسير بالتليفزيون المصري، وقد جاء فيها وفى ذلك التاريخ أنه:

منذ أكثر من عام وأروقة ماسبيرو تهمس بتصريحات أنس الفقي عن إعادة هيكلة الإتحاد بدمج بعض القطاعات وتطوير البعض الآخر. لكن نظرية التشكيك فيما اقترحه الوزير طالت كل قطاعات التليفزيون، وأصبح الكثيرون على يقين تام بأن الهيكلة ما هي إلا عملية تخلص من تلك المنظومة القومية التي أنشأها عبد الناصر ونفذها الخبير الإعلامي الدكتور عبدالقادر حاتم، وقد وضعت الحكومة وزير الإعلام فى مأزق حقيقي يتمثل فى ضرورة حل إشكالات التليفزيون، وأولى تلك المشكلات هى 7 مليارات جنيه، محصلة ديون التليفزيون لبنك الإستثمار،- الدين الآن 17 مليار - ومن الطبيعي من وجهة نظر الوزير الذي يدير الوزارة بعقلية الحزب الوطني، أن يرى الحل يقتضي ضرورة بيع التليفزيون بغض النظر عن تبعات تلك الخطوة، وبالرغم من تصريحات وزير الإعلام بالمحافظة على ملكية الدولة للتليفزيون، فإن تلك التصريحات لا تتعدى كونها مادة للاستهلاك والتهدئة. لكن الوزير بأسلوب التفكير الحكومي ليس أمامه سوى البيع نتيجة الخسائر المالية، وقد تحدث كل المعنيين بالفكر والثقافة ومؤسسات المجتمع المدني، بأن المشكلة الأساسية هى الخسائر المالية. لكن الراصد لحركة التليفزيون المصري أول تليفزيون عربي تم فتحه فى 21 يوليو 1960 وإلى الآن، يكتشف أن الخسائر المالية التي حققها تليفزيون الريادة على حد تعبير صفوت الشريف ليست مشكلة على الإطلاق

فأي قناة محترمة فى العالم النامي أو المتقدم تحقق أرباحا حقيقية، ناتجة عن ممارسات إدارية وإعلامية تصب فى النهاية لصالح القناة. لكن التليفزيون المصري منذ صفوت الشريف وإلى الآن يدار بعقلية الموظف والأمن، تلك العقلية كفيلة بانهيار CNN والجزيرة خلال 4 أسابيع من إنتهاج تلك السياسة، وإن كانت تلك العقلية هي المتسبب الأول فى تخسير وليس خسارة التليفزيون لـ 7 مليارات جنيه تم توزيعها بين عقلية الأمني والفساد المالي، إلا أننا نؤكد أن الخسارة المالية ليست مشكلة بأي حال من الأحوال، لأنه يمكن تعويض ذلك المبلغ رغم فداحته، وبشكل أسرع مما هو متوقع. أما الخسارة الحقيقية فتكمن فى فقد تليفزيون الأمة العربية هويته ومشاهديه، حتى خرج إلينا صالح كامل بشركته art كي تعلن وببساطة شديدة بأنها راديو وتليفزيون العرب، وقد مر المصطلح ببساطة شديدة أيضا حتى أن المصريين أنفسهم قاموا باستبدال القنوات المصرية بالفضائيات التى عبرت عن رغباتهم ومشاكلهم التى انعزل عنها إعلامهم المرئي، الذي يشيد ليل نهار بحكمة مبارك وأنجال مبارك. يتحدث عن عبقرية الرجل فى التنمية فى حين تتحدث الفضائيات الأخرى بالوثائق والمستندات عن الإنهيار الاقتصادي فى مصر. تعلن نشرة الأخبار عن الحريات فى عهد مبارك، فى حين يظهر على الشاشات الأخرى الممارسات القمعية والوحشية لوزارة الداخلية وبالتالي انفصل المشاهد المصري تحديدا عن التليفزيون المصري، بحثا عن بديل يحترم عقليته. فمن هنا جاءت الخسارة الكبرى على يد رواد التخسير كمشكلة من عشرات

المشاكل التى أدت إلى انهيار تلك المنظومة التى احترمها الشعب وقدرها لعشرات السنين، والتي سيبيعها أنس الفقي حتى وإن أقسم على التوراة والإنجيل والقرآن. فمحدودية الرؤية لا ترى إلا طريقا واحدا لمعالجة المشكلة بالبيع ثم التخلص من العمالة الزائدة التى أتى بها رجال الحزب الوطني إرضاء لنوابه، والسلام على التليفزيون المصري يوم ولد ويوم يموت ويوم...

بانتهاء هذا العرض القديم، لابد وأن أعتذر للقارئ الكريم عن الخلط الاصطلاحي بين التليفزيون الحكومي المصري والتليفزيون المصري، لأنني لم أكن أدرك حتى ذلك التاريخ الفارق الجوهري والكبير بين المعنيين. فهو الحكومي وليس المصري حتى اللحظة الراهنة، أما عن فكرة البيع فمازالت خلال هذه السنوات تطرح على مائدة كل وزراء ورؤساء الإتحاد المتعاقبين. كما أعتذر عن معلومة أول تليفزيون عربي، فبمراجعة التأريخ للتليفزيونات العربية وجدت التليفزيون العراقي هو صاحب السبق، وأيضا صاحب تاريخ عبقري مماثل لتاريخنا فى العوار الإصطلاحي والإجرائي. ذلك العوار الذي دفع التليفزيون الحكومي للدفاع عن مبارك مع بدايات الثورة وسبه وقذفه مع نهايتها، وتمجيد المجلس العسكري ثم الدعاء بيسقط يسقط حكم العسكر. تلاها بالتصفيق لتكريم المجلس العسكري، ثم الدعوة لنظام جماعة الإخوان وتمجيدها مع سيطرتهم على الحكم، وتحول لحظيا بعد ثورة 30 يونيه ويسقط يسقط حكم المرشد والإخوان وكل من هو آيل للسقوط، طالما رغب الحاكم والمسيطر فى ذلك، وإذا ما تغير المشهد فى اللحظة الراهنة ستسمع للتو

يسقط يسقط حكم السيسي. هذه طبيعة التليفزيونات الحكومية السلطوية فى الدول القمعية، وليس الإعلام التجاري أفضل منها بأي حال من الأحوال. ولن نخوض فى ذكر أسماء بعينها فالشبكة العنكبوتية كفيلة بإظهار ما تم دفنه، من إعلاميين تجاريين وشيوخ تجار قاموا بالبكاء على مبارك فى مشهد أقل ما يوصف بالمقزز، لا لكونهم بكوا، لكن لكونهم خلال ساعات ذهبوا إلى سب المخلوع لحظة الإنكسار وشعورهم بدنو الرحيل. فى الحقيقة الأمر لا يحتاج للتعجب، إلا إذا ارتأيت أن محل بقالة سيقدم بضاعته بالمجان، وبأن تاجرا سيكتب على بضاعته أنها مغشوشة، فهذا واقع الإعلام التجاري فى بلادنا، خلاف ما يحدث فى الغرب وبالتحديد أمريكا،إذا ماذهبت أي قناة إلى الفجاجة فى الممارسة وراحت تتلاعب بشكل مكشوف بعقلية جماهيرها، على الفور يتحول عنها الجمهور وتخسر مورد الإعلانات. فالعوار هنا فى عقولنا التى تكتشف زيف تلك المحطات وتستمر فى مشاهدتها والترويج لها بطريقة سلبية، مثل رأيت الضيف "الفلاني" وهو يسب الضيف "العلاني" فيرد الآخر: رأيت. إنها قناة بنت... هذا النوع من المشاهد خطر على وطنه أكثر من محطات العار على حد وصفه، فالعار هو تعاملنا مع القضايا المعرفية بذلك الإستخفاف من باب السخرية أو السباب وتفريغ شحنات الغيظ. التجاهل وتخسير تلك المحطات بعدم ذكرها، هو الفضيلة الكبرى. فالرهان على إعلام يسقط يسقط رهان خاسر. فليكن رهانك الوحيد على عقلك المتجرد وضميرك الحي وقلبك النوراني. فهذا الرهان وحده الكفيل بدفعك إلى تغير مواقفك وإتجاهاتك أينما حل الحق ضيفا.